المصدر: الدستور

التاريخ: ١٩٩٦/١٠/٣٠

# السادات والمخابرات الأمريكية من الرحلة الأولى إلى الرصاصة الأخيرة

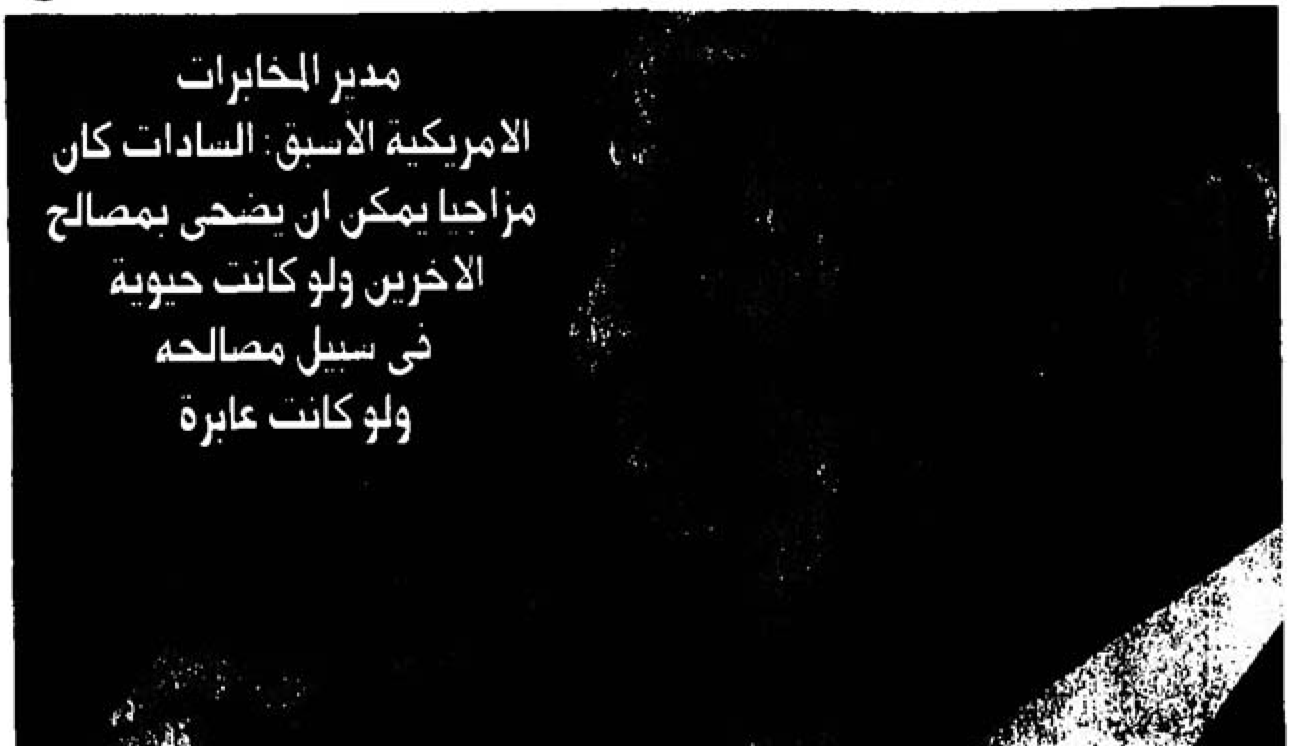


- تقارير الـ«سى. آى. إيه» تؤكد: السادات مثل طريق له اتجاهين خطره مزدوج
- السادات يتهم الامريكان فى حديث تليفزيونى بأنهم «عايزين عمر التلمساني»
- قناة سرية ترعاها المخابرات الأمريكية لنقل رسائل السادات لواشنطن

لم يكن أنور السادات مجرد رئيس لمصر.. وانما كان أيضا أكثر رؤساء مصر تماسا مع المخابرات المركزية الامريكية.. عن قناعة وإدراك بأهمية دورها كواحدة من أهم قنوات الاتصال مع الإدارات الأمريكية وصانعي القرار في الكونجرس.. ومع ذلك فإن علاقة السادات بجهاز الـ «سي. أي. إيه» كانت غريبة ومثيرة إلى حد كبير حتى إنها تعد نموذجا للتشابك والتعقيد في العلاقة بين رئيس دولة كبيرة في الشرق الأوسط وجهاز استخباري ضخم له أذرع طويلة وعديدة داخل مصر وخارجها. ورغم أن جهاز المخابرات المركزية الأمريكية كان يبدو على السطح راضيا عن تعاون السادات مع السياسة الأمريكية واتفاقه مع مصالحها فإن الصورة كانت جد مختلفة تحت الجلد. فمن ناحية كان السادات قادرا في أوقات كثيرة وغير متوقعة على أن يفاجئ الإدارات الأمريكية بقرارات ومواقف تعجز المخابرات المركزية بكل عملائها وأجهزتها عن رصدها مبكرا أو تفسيرها بوضوح لاحقا.. ومن ناحية أخرى لم تكن تقارير الـ «سي. أي. إيه» كلها قصائد شعر في السادات بل كان بعضها يذهب بعيدا إلى حد انتقاده والإشارة إلى حالات السخط الشعبي على مواقفه وخاصة خلال أحداث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧

نبدأ بما قبل الرئاسة. يروي «هيكل» في كتابه «خريف الغضب» أن عبد الناصر قال ذات لقاء ضمه مع هيكل والسادات بعد إصابة الأول بنوبة قلبية في صيف ١٩٦٩ أنه سوف يسأل الأطباء مرة أخرى عما إذا كانت مشاكله الصحية يمكن أن تعطل حسن أدائه لواجباته.. ولكن السادات اندفع فجأة يقول لعبد الناصر «ما هذا الذي تقوله يا معلم» (هكذا كان السادات ينادي عبد الناصر دائما) ثم استطرد السادات يقول «ومن هذا الذي يستطيع أن يأتي بعدك؟ إنك جعلتها مسألة صعبة جدا لمن سيخلفك لاسمح الله. ماذا تركت له لكي يفعل؟ لقد طردت الملك وطردت الإنجليز وبنيت السد العالي وحققت إرادة الوحدة العربية وغيرت وجه مصر كلها.. إنني أرثي له هذا الرجل المسكين بصرف النظر عمن يكون» ورد عبد الناصر قائلا «هل تتصور أن الأمريكان سوف يتركون مصر في حالها عندما أذهب؟ لاتتصور لحظة أن ذلك يمكن أن يحدث، من يدري أنهم لايقومون الآن بإعداد رجل مثل سوهارتو في مكان ما من صفوف الجيش». ومن مفارقات القدر أن السادات في تلك اللحظة قال بصوت ملأه بنبرة وعيد «لو أن أحدا دلني على مثل هذا الرجل وأين هو لقطعت رقبته بيدي هاتين»!

وقبل تولي السادات منصبه الرئاسي بفترة طويلة.. كانت المخابرات الأمريكية تراقبه عن كثب.. ولعل أول ما نلمحه في هذا الشأن هو الترتيبات التي أجريت لزيارة السادات للولايات المتحدة لأول مرة في عام ١٩٦٦ وكان رئيسا لمجلس الأمة آنذاك.. ويروي محمد عبد السلام الزيات وزير الخارجية

الأسبق في مذكراته تفاصيل الرحلة وانبهار السادات بالولايات المتحدة وتأثير الدبلوماسي الأمريكي مايكل ستيرنر عليه بعد ان عمل مرافقا له طوال الرحلة ثم أصبح أحد أشهر الخبراء الأمريكيين في تصرفات السادات وردود فعله.

والحقيقة أن السادات كرئيس كانت لديه في القاهرة قنوات ظاهرة للاتصال بالولايات المتحدة عن طريق مكتب رعاية المصالح (كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة منذ معارك ١٩٦٧).. وحل محل السفارات في عاصمتي البلدين مكتب لرعاية المصالح لكن السادات لم يكن مقتنعا بأن قنوات وزارة الخارجية الطبيعية تستطيع أن تحمل رسائله المهمة إلى الدوائر المؤثرة في واشنطن. ولذا فإنه مع قرب نهاية ١٩٧١ كان قد سمح باتصالات دورية مباشرة بين الفريق أحمد إسماعيل - كان وقتها مديرا عاما للمخابرات العامة المصرية - وبين يوجين ترون الذي كان واضحا أنه ممثل المخابرات المركزية الأمريكية الخفي ضمن بعثة رعاية المصالح الموجودة علنا في مصر، والتي كانت تمارس عملها داخل إطار السفارة الإسبانية التي كلفتها واشنطن بتمثيلها في مصر بعد قطع العلاقات. وكان الخطر الذي يبدأ بـ «ترون» في القاهرة ينتهي في واشنطن إلى مسئول الشرق الأوسط في إدارة المخابرات المركزية الأمريكية ثم إلى لجنة الأربعين الشهيرة بالبيت الأبيض. وكانت هناك جهود تعزز حركة الاتصالات على هذه القناة السرية، وذلك من خلال نشاط كان يقوم به عدد من الصحفيين الأمريكيين ورجال الأعمال ممن كانوا على صلات وثيقة بمواقع صنع القرار. وليس من السهل على أي باحث أن يتعقب حركة التبادل عبر هذه الوسائل المكتومة، كما أنه ليس من السهل معرفة الأثر الذي أحدثته هذه الحركة على تشكيل تفكير أنور السادات.. ولكنه كان يحتفظ بكل أوراقه قريبة إلى صدره كما يقولون.

ولقد بدات أولى الرسائل المتبادلة بين السادات و«صديقه» هنري كيسنجر مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون بعد ساعات قلائل من بدء معارك حرب أكتوبر ١٩٧٣، وقد دارت من خلال قنوات الاتصال السرية التي كان السادات قد اقامها مباشرة مع مجلس الأمن القومي الأمريكي من خلال وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وكان كيسنجر بدوره من أنصار قناتين للاتصال. القناة الدبلوماسية و«القناة البديلة» كما يسميها ويعني بها قناة المخابرات.. وكان ذلك النظام نافعا له خصوصا في الفترة التي لم يكن فيها وزيرا للخارجية وإنما مستشارا للأمن القومي للرئيس الأمريكي فقط. ويشير هيكل في «خريف الغضب» إلى أن المخابرات المركزية الأمريكية عينت أحد خبرائها في الشئون العربية ويدعى «جون فز» لكي يكون متواجدا باستمرار في مقر الرئاسة في مصر وكانت المهمة الموكلة إليه أن يتأكد من الإجراءات الأمنية الخاصة لحماية السادات. وتشير وثائق أمريكية عثر عليها داخل السفارة الأمريكية في طهران عقب ثورة الخميني إلى أن وكالة المخابرات المركزية صححت عدة خطط أمنية للسادات حتى تجنبه خطر الاغتيال.

أصبح السادات تحت المراقبة الأمريكية ٢٤ ساعة فى اليوم.. راقبوا بيته ومكتبه وسيارته.. وكانت مصادر المعلومات المتنوعة تنقل أولا بأول كل ما يفعله.. وادعى بوب وود ورد فى كتاب «الحجاب: الحرب السرية للمخابرات المركزية من ١٩٨١-١٩٨٧» أن المخابرات الأمريكية عرفت مثلا أن السادات كان مدمنا

تعاطى المخدرات وكانت تنتابه لحظات تلهف عليها.. ولكن مدير «السى. اى. إيه» لم يهتم بذلك.. فالسادات كما يقول عادل حموده فى كتابه «صلاة الجواسيس» كان فى قبضته دون حاجة لهذا النوع من المعلومات التى تستخدم فى الابتزاز الأسود. وفى كتاب «الحجاب» وغيره من المصادر والمراجع - مثل الجزء الثانى من أحدث كتب هيكل «العرب والمفاوضات السرية» - نعرف أن علاقة السادات بالمخابرات المركزية بدأت من خلال وسيط هو كمال أدهم الذى كان رئيسا للمخابرات السعودية بينما كان السادات لايزال نائبا لعبد الناصر.. بل إن وودورد يذهب إلى القول بأن هذه العلاقة جلبت للسادات «دخلا ماليا منتظما» دفعه السعوديون الذين تداخلت وتشابكت مصالحهم مع الأمريكان إلى حد أصبحت فيه مصالح الطرفين.. واحدة. وعندما أصبح السادات رئيسا لم يعد فى حاجة للوساطة وطور علاقته بالمخابرات الأمريكية بصورة مذهلة.. وأصبحت علاقة تاريخية مميزة على حد وصف المسئولين فى المخابرات الأمريكية أنفسهم.. بعد أن توحدت المصالح. وفى الوقت نفسه كان السادات على علم بالاتصالات التى كانت تجرى بين الإخوان المسلمين وعناصر من السفارة الأمريكية فى منتصف عام ١٩٧٧.. وتشير وثائق السفارة الأمريكية فى طهران التى نشرت فيما بعد فى كتاب يحمل نفس الاسم إلى أن السادات نصح الطرف الأمريكى بتوخى الحذر

«لأن اليمين المسلم أكثر يقظة اليوم من أى وقت مضى فيما يتعلق بهذا النوع من الدراسات».. واقترح السادات أن تستند هذه الدراسة إلى «مصادر مصرية حكومية». وما يؤكد أن السادات كان على علم بهذه الاتصالات هو أنه قال فى ١٥ أبريل ١٩٧٩ فى حديث تليفزيونى «بيتقال لولادنا النهارده إن أمريكا باعته لحكومة ممدوح سالم تقول لها إوعى الحركات الدينية.. خلصى على الحركات الدينية.. ما هم عايزين التلمسانى». ولم يفهم الذين سمعوا السادات أنه كان يقصد «الأمريكان» بكلمة «هم».. لكن عادل حمودة فى «اغتيال رئيس» وهيكل فى «خريف الغضب» يتهمان بطريقة غير مباشرة المخابرات الأمريكية بإعطاء الضوء الأخضر لاغتيال السادات بعد أن تركوه مكشوف الظهر أمام الجماعات الأصولية التى اغتاله بعض أفرادها فى ٦ أكتوبر ١٩٨١.

ويمكن القول إن الولايات المتحدة بعد فوز رونالد ريجان فى الانتخابات الرئاسية اتبعت سياسة جديدة رفضت بمقتضاها مساندة أصدقاء أجهزتها الاستخبارية ممن يتصرفون بطريقة مفاجئة يصعب توقعها ورأت أن يكون أصدقاؤها «ديموديكتاتوريين» أى النصف ديمقراطى والنصف الآخر ديكتاتورى.. وكان السادات الضحية الأولى لهذه السياسة الأمريكية الجديدة ثم توالى بعده الضحايا من «الأصدقاء القدامى» مثل جعفر نميرى (السودان) فرديناند ماركوس (الفلبين) محمد ضياء الحق (باكستان).. إلخ.

وفى مذكراته التى تحمل عنوان «الرجال الشرفاء» يقول المدير الأسبق لوكالة المخابرات المركزية وليم كولبى «إن السادات فتح نفسه وبلاده لوكالة المخابرات المركزية وللمصالح المشتركة المصرية الأمريكية ولكنه كان مثل طريق ذى اتجاهين.. خطره مزدوج». ويروى كولبى ما يؤكد أن السادات كان «مزاجيا» يمكن أن يضحى بمصالح الآخرين ولو كانت حيوية فى سبيل مصالحه ولو كانت عابرة.. وقد تزايد الشك فى السادات مع ازدياد التعامل الأمريكى معه.. وفى شهور حكمه الأخيرة استنتج محللو المعلومات الشخصية فى وكالة «السى. اى. إيه» أن السادات «مخادع» فهو فى رأيهم يجعل كل طرف يظن أنه يملكه ويسيطر عليه.. وهذا غير صحيح لأنه فى النهاية مثل الزئبق لايمكن الإمساك به.. وعلى حد قول الأمريكى بوب وودورد كانت هذه طريقة السادات للإمساك بجميع الأوراق.. إلا أن ذلك ضاعف من عزلته على كافة المستويات.. حتى جاء يوم الحساب.. حيث قُتل وسط جو من الرضى الظاهر وفشل حراسه فى حمايته!! ولنتذكر أنه قبل أسبوعين من اغتياله تلقى السادات معلومات مفصلة حول تهديدات من ليبيا وإثيوبيا وسوريا وإيران.. وكان مصدرها جهاز «السى. اى. إيه» الذى اهتم بتحذيره من «التهديدات الخارجية» وأهمل «القوى الداخلية» وكانت منها القوى الأصولية التى نفذت حادث المنصة. وكان تجاهل هذه القوى وراء إحساس السادات المتضخم بأنها أضعف من ان تطوله.. وهو ما جعله لايهتم كثيرا بتأمين نفسه فى العرض العسكرى الذى قتل خلاله.. حتى أن السادات فوجئ بما يحدث أمامه وصرخ قائلا فى وجه قاتليه «مش معقول.. مش معقول» إذ لم يكن يتوقع أن المخابرات الأمريكية تخدعه وتنبهه إلى أعداء خارجيين لتصرف نظره عن خصومه فى الداخل..وفى كتابه «حقبة غامضة من التاريخ المصرى» يؤكد فلاديمير فينوجرادف آخر سوفيتى فى القاهرة قبل قطيعة السادات مع موسكو.. أنه منذ مطلع سبتمبر ١٩٧١ نشطت المخابرات الأمريكية بصورة لم يسبق لها مثيل وبدأ عملاؤها يتحركون بحرية أوسع.. وانتهى الأمر بالقضية التى عرفت باسم «قضية راندو بولو» وهو مواطن متمصر من أصل

يونانى كان يعمل مقاولا فى تشييد بعض المنشآت العسكرية إضافة إلى عضويته فى مجلس الأمة المصرى سابقا. وذكر هيكل فى كتابه «الطريق إلى رمضان» أن التى جندته هى موظفة أمريكية تدعى «سفاين» كانت تعمل ضمن أعضاء بعثة رعاية المصالح الأمريكية. ويرى هيكل أن السادات قرر إطلاق سراح الجاسوسة الأمريكية «سفاين» للحفاظ على قناة الاتصال بينه وبين المخابرات المركزية الأمريكية ومجلس الأمن القومى الأمريكى بقيادة كيسنجر. أما راندو بولو فيقول محمد عبد السلام الزيات وزير الخارجية الأسبق فى مذكراته «السادات القناع والحقيقة» إن السادات أصر على ضمه لقائمة الوفد الذى رافقه فى أول زيارة له للولايات المتحدة عام ١٩٦٦ بدعوى زيارة ابنته. وكان طبيعيا أن تمارس المخابرات المركزية الأمريكية فى ضوء هذه الحرية المتاحة لها فى مصر نشاطا واسعا رصدت خلاله كل ما يتعلق بالسادات بصورة منتظمة وزادت وتيرة اهتمامها بعد توقيعه معاهدة السلام مع إسرائيل. إذ تكشف وثيقة للخارجية الأمريكية مستندة إلى معلومات المخابرات المركزية بتاريخ ٥ يوليو ١٩٧٩ أن تحليلات المخابرات المركزية تشير إلى أن شعبية السادات مازالت مرتفعة لكنها حذرت من أن المعارضين السياسيين للرئيس الراحل يحتلون مراكز حساسة فى المجتمع المصرى. ونبهت إلى أن وضع السادات الداخلى عرضة للتقلبات والفشل. بل وعرضة للاغتيال من قبل عناصر راديكالية محلية.

وتوضح هذه الوثيقة الأمريكية الخطيرة أن المخابرات المركزية بدأت فى بحث الأوضاع فى مصر بعد اغتيال السادات. وكان ذلك قبل ١٥ شهرا من اغتياله فى ٦ أكتوبر ١٩٨١. بل إن وثيقة أخرى تحمل تاريخ ٣١ يوليو ١٩٧٩ وتستند أيضا إلى معلومات المخابرات المركزية الأمريكية تحذر من تصاعد قوة الأصوليين فى مصر وسيطرتهم على الجامعات وغضبهم من السادات. لكن «السى. آى. إيه» رأت أن دورها فى اغتيال السادات يكون باتخاذ موقف سلبى ويقتصر على عدم توصيل معلومات عن المؤامرة ضد السادات إليه إن لم يكن تضليله. ومن ثم تركت خصومه من الأصوليين يتخلصون منه دون أن تتورط فى حادث الاغتيال. رغم أنها كما يعلم الكثيرون نجحت فى اختراق عدد من التنظيمات الأصولية قبل حادث المنصة حتى تكون على علم بما يدور فى عقول هذه العناصر المتطرفة.

**ياسر ثابت**